زريـــــاب

اصل الغناء العربي بالمغرب الاسلامي .

ابو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب المغني خلاسي من مواليد الجزيرة سنة 172 هـ وزرياب اسم لطائر لطيف اسود غرد معروف بهذا الاسم بالعراق وربما كان المعروف عندنا بام الحسن لقب به ابو الحسن لسواد لونه وفصاحة لسانه وحلاوة شمائله نشأ علي بن نافع ببغداد بين موالى الخليفة المهدي العباسي وفي عصر ابنه هارون الرشيد ـ ازهر عصر رأيته بغداد ـ وعرف حياة البلاط وترف قصور عاصمة الخلافة وكان حسن الصوت تام الاداء لطيف المعشر وقاد الذكاء اخذ عن اسحق بن ابراهيم الموصلي عميد الغناء العربي وطبقة المغنين ببلاط الرشيد وكان اسحق ضنينا بفنه لا تطيب نفسه لاخذ الغير لصناعته وبالاخص اذا كان الآخذ احسن صوتا منه لايسمح بذلك حتى لجواريه .

اتقن زرياب صنعة الغناء والتوقيع على العود وابتكر بعد زلزل تحسينات ادخلها على عوده ولكن انى له الوصول الى مجلس الرشيد وهو حدث السن وقد غلبت فحول الموسيقى على البلاط وصنف الرشيد طبقاتهم ودون الطبقة الاخيرة مصاب فضلا من الطبقة الاولى والثانية .

زرياب النابغ المتوثب رب عائلة وبنون يتطلبون عيشا رغدا وتتوق نفسه لاسمى مما يرى بين يديه وهو الشاعر بقيمة ما اتاه الله من مواهب تسمح له بان يحتل مكانة الصدر ويعيد ذلك من متناوله واسحق استاذه وابراهيم بن المهدي اخو الخليفة ومخارق مولى الرشيد وآخرون قد احتلوا المجلس وليس من السهل زحزحتهم ليخلو الجو لشاب لم يبلغ الثلاثين فمن الطبيعي اذن ان يتزحزح لبلد يجد فيه حظه ورزقه اما ان يشرق واهل المشرق لم يشفهم حينذاك ترف بغداد لانهم يعتبرون بلدانهم اصلا للحضارة منهم توخذ ، واهل الغرب ـ يودون اقتناء اثر بغداد في كل شيء في الآداب والتقاليد والعادات وكانت تقوم بالمغرب حينذاك ثلاث ممالك فتية تسعى لتاييد سلطانها وترسيخ قدم الحضارة في ارضها مملكة الاغالبة بافريقية وممالك الادارسة بالمغرب ومملكة بني امية بالاندلس

وكانت القيروان وفاس وقرطبة تنسج على منوال بغداد وتتقي خطواتها وتتسابق م
كل واحدة لتكون الابنة البكر لبغداد ولتحظى بلقب بغداد الصغيرة .
يذكرون قصة وقعت بين زرياب وبين اسحق الموصلي مع الرشيد وفيها بعض
الاستشهاد قال المقري في نفح الطيب نقلا عن المقتبس :
(زرياب لقب غلب عليه بجلاده من اجل سواد لونه مع فصاحة لسانه وحلاوة
شمائله شبه بطائر اسود غرد عندهم وكان شاعرا مطبوعا وكان ابنه احمد
قد غلب عليه الشعر ايضا وكان من خبره في الوصول الى الاندلس انه كان تلميذا
لاسحق الموصلي ببغداد فتلقف من اغانيه استراقا وهدي من فهم الصناعة وصدق
العقل مع طيب الصوت وصورة الطبع الى ما فاق به اسحق واسحق لا يشعر بما فتح عليه
عليه الى ان جرى للرشيد مع اسحق خبره المشهور في الاقتراح عليه بصنع
غريب مجيد للصنعة لم يشتهر مكانه اليه فذكر له تلميذه هذا وقال انه مولد
مولى لكم وسمعت له نزعات حسنة ونغمات رائقة ملتاطة بالنفس اذا انا وقفته ع
على ما استغرب منها وهو من اختراعي واستنباط فكري واحدس ان يكون له شأن
فقال الرشيد : هذا طلبتي فاحضرنيه لعل حاجتي عنده فاحضره فلما كلمه الرشيد
الرشيد اعرب عن نفسه باحسن منطق واوجز خطاب وساله عن معرفته بالغناء فقا
فقال : نعم احسن منه ما يحسنه الناس واكثر ما احسنه لا يحسنونه مما لا يحسن
الا عندك ولا يدخر الا لك فان اذنت غنيتك ما لم تسمعه اذن قبلك فامر باحضار
عود استاذه اسحق فلما ادني اليه وقف عن تناوله وقال : لي عود تحته
بيدي وارهفته باحكامي ولا ارتضي غيره وهو بالباب فليأذن لي امير المومنين
المومنين في جلبه فامر بادخاله اليه فلما تامله الرشيد وكان شبيها
بالعود الذي دفعه قال له : ما منعك ان تستعمل عود استاذك ؟
فقال : ان كان مولاي يرغب في غناء استاذي فنيته بعوده وان كان يرغب في
غنائي فلا بد لي من عودي فقال له ما اراهما الا واحدا فقال صدقت يا مولاي
ولا يودي النظر غير ذلك ولكن عودي وان كان في قدر جسم عوده ومن جنس
خشبه فهو يقع من وزنه في الثلث او نحوه واوتاري من حرير لم يغزل بماء
سخن يكسبها اناثة ورخاوة وبعدها ومثلثها اتخذتهما من مصر ان شبل
[illegible]

اسد فلها من الترنم والصفاء والجهادة والحدة اضعاف ما لغيرها من سائر الحيوان ولها في قوة الصبر على تاثير وقع المضارب المتعاودة بها ما ليس لغيرها فاستبرع الرشيد وصفه وامره بالغناء فجس ثم اندفع فغناه :

يا ايها الملك المسيمون طائره هرون راح اليك الناس وابتكروا

فاتم النوبة وطار الرشيد طربا وقال لاسحق والله لولا اني اعلم من صدقك لي على كتمانيه اياك لما عنده وتصديقه لك من انك لم تسمعه قبل لانزلت بك العقوبة لتركك اعلامي بشانه فخذه اليك واعتني بشأنه حتى افرغ له فان لي فيه نظرا . فسقط في يدي اسحق وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره . فخلا بزرياب وقال له : يا علي ان الحسد اقدم الادواء وادواؤها والدنيا فتانة والشركة في الصناعة عداوة ولا حيلة في حسمها وقد مكرت بي في ما انطويت عليه من اجادتك وعلو طبقتك وقصدت منفعتك فاذا انا قد اتيت نفسي من مامنها بادنائك وعن قليل تسقط منزلتي وترتقي انت فوقي وهذا ما لا اصاحبك عليه ولو انك ولدي ولو لا رعي لذقة تربيتك لما قدمت شيئا على ان اذهب نفسك يكون في ذلك مكان فتخير في شتين لا بد لك منهما اما ان تذهب عني في الارض العريضة لا اسمع لك خبرا بعد ان تعطيني على ذلك الايمان الموثقة وانهضك لذلك بما ارزت من مال وغيره واما ان تقيم على كرهي ورغمي مستهدفا الي فخذ الآن حذرك مني فلست والله ابقى عليك ولا ادع اغتيالك باذلا في ذلك بدني ومالي فاقضي قضاءك فخرج زرياب لوقته وهو على يقين من قدرة اسحق على ما قال واختار النجاة بنفسه فاعانه اسحق على ذلك سريعا وراش جناحه فرحل يبغي مغرب الشمس واستراح قلب اسحق منه وتذكره الرشيد بعد فراغه من شغل كان منغمسا فيه فامر باحضاره فقال :

ومن لي به يا امير المؤمنين ذاك غلام مجنون يزعم ان الجن تكلمه وتطارحه ما يزهى به من غنائه فما يرى في الدنيا من يعد له وما هو الا ان ابطأت عليه جائزة امير المؤمنين وترك اسعادته فقصر التقصير به والتهوين بصناعته فرحل مغاضبا ذاهبا على وجهه مستخفيا عني وقد صنع الله تعالى في ذلك لامير المومنين فانه كان به لمم يغشاه ويفرط خبطه فيفزع من رآه فسكن :

الرشيد الى قول اسحق وقال: على ما كان به فقد فاتنا منه سرور كثير = وهكذا الصقت القصة باسحق ازرى الاوصاف كما اشارت الى زعم زرياب ان الجن تطارحه الغناء وآخر من يعيب عليه ذلك هو اسحق لان هذا الزعم صدر عن ابراهيم - الموصلي والد اسحق عندما زعم ان الجن توحي له الاصوات وان غناء الماخوري علمه له الشيطان عندما تمثل له في صورة شيخ ولا يعقل ان يشنع اسحق - بقول صدر مثله وتصنع الخيال في هذه القصة ظاهر ولو نسبت للمامون عوض أبيه الرشيد لكانت اقرب للتصديق بقطع النظر عن استهداد سلوكه مع استاذه وسلوك استاذه معه .

وانا نعتقد ان اتخاذه لطريقة اسحق الموصلي في الغناء جعلته يدرك ان حظه في بغداد لا يمكن ان يعلو فتخير الرحلة الى المغرب وهذا ما اراه تعليلا موافقا لمنطق الاشياء لا ما ذكر من حسد اسحق ومكانة اسحق مستقرة لا يمكن ان - يزعزعها تلميذ او مغن ناشي .

على اننا نجد اوهاما كثيرة في ترجمة زرياب منها انهم قالوا انه من موالي الخليفة المهدي والحال ان زرياب ولد سنة 172 هـ والخليفة المهدي مات سنة 169هـ قبل ان يخلق زرياب وقالوا انه ترك بغداد في عصر الرشيد والتحق بزيادة الله بن الاغلب والحال ان زيادة الله لم يول الامارة الا بعد وفاة اخيه عبدالله في 17 حجة سنة 201 هـ 816 م في خلافة المامون بن الرشيد .

الثابت ان زرياب غادر بغداد واتصل بزيادة الله ثم ارتحل للاندلس ولا ندري على وجه التحقيق متى غادر بغداد وكم مكث في - الطريق من حين مغادرته بغداد في اواخر ايام الرشيد ان صح ذلك - الى استتباب الامر للمامون وهل توقف بمصر وسرقة وبمن اتصل في هذه الفترة وما هو العمل الذي كان يدر عليه رزقه وكل ما نعلم انه اخيرا قصد بلاط زيادة الله الاول ابن ابراهيم بن الاغلب بالقيروان لما اشتهر به زيادة الله من الطموح والرغبة في اظهار ترف الملك وبذخ السيادة والشغف بتبسط العمران والاخبار ضنينة بتفاصيل حياة زرياب بالقيروان العاصمة